وجفت القلوب

هل أبكيك يا وطني أم أبكى حالي وما آل إليه أمري فصراخ أطفالنا وعويل نسائنا لم يعد مسموعاً فقد أصاب الناس الصمم وكأننا فئران تجارب يشاهدها المجتمع ويتابع باهتمام ولكن لا يتحرك ... فقط ينتظر النتائج ... هكذا راحت تفكر وهي تهرول لتعود لدارها ...

وهى تحتضن الكيس الذي حصلت عليه بشق الأنفس من مكان المعونات القليلة التي تصل للبلدة ...قليلة لا تسمن ولا تغنى من جوع ... فلم تكن تملك من قوت يومها إلا الفتات ... ولديها طفل وطفلة وكلاهما يصرخ ألماً من الجوع ورعباً من أصوات الرصاص ، وهي المسؤولة عنهما الآن ، بعد أن خرج زوجها منذ أسبوع ولم يعد ... وصلتها أخبار متضاربة ... بعضهم قال قتل وبعضهم قال مصاب، لا تعرف وليس لديها وقتاً للتفكير، أو حتى البكاء فتلك رفاهية لا

تملكها ... فإن أكثر ما يقلقها أنها تركت صغيريها بمفردهما...

فالشارع الذي تسكن فيه تهدمت الكثير من دوره ورحل أغلب السكان... ورفض زوجها أن يترك المكان، وحتى لو وافق، إلى أين ستذهب فقد قتل أخوها وأبوها ولم تعد هناك مدينة آمنة...

أي حرب تلك!! ... إنها إبادة شعب تحت مسميات شتى مناصرة النظام أو الحفاظ على النظام أو الخوف من الدواعش أو الحفاظ على ترابط الدولة، كلها مسميات ... ولكن كل هذا لا يعنيها فما هي إلا مبررات ... المهم أن تصل إلى بيتها سريعا... فتحت الباب وراحت تنادى على ابنها علي وابنتها علياء فلم تسمع صوتاً... أصابها الفزع ودخلت مسرعة ... وجدتهم تحت السرير يحتضن أحدهما الآخر... اخرجتهم وضمتهم إلى صدرها ...ماذا هناك يا علي؟ قال لقد كان هناك قصف في الشارع المجاور وسمعت صوت انفجار شديد وراحت علياء تبكي ورفضت أن تخرج من أسفل السرير فدخلت معها أهدئها حتى تعود، قبلت طفليها وذهبت إلى الشباك الخلفي ... يا هول ما رأت منزل ابو محمد قد تهدم تماماً...

خرجت من بيتها تعدو وهناك وجدت ما تبقى من سكان الشارع يبحثون عن أحياء تحت الأنقاض وقد جلست أم محمد وهي في حالةٍ من الجمود... هناك تحت الأنقاض يرقد أولادها وأبيها المقعد ...

لقد تركتهم في البيت وخرجت لتبحث عن طعام لهم ... لقد سبق أن خرج زوجها ايضا منذ أيام ولم يعد ... أصاب أم علي حالةً من الجمود ... لقد تلاعبت كل الشياطين بعقلها... ماذا لو قصف منزلها وأولادها بمفردهم ... عادت سريعا إلى منزلها لتحضر أولادها معها وقد أقسمت ألا تتركهم بمفردهم بعد اليوم فليحيوا معاً أو يموتوا معاً...

عادت لتساعد الناس في البحث تحت الأنقاض ... سيحتاجون الليل بطوله ... دثرت ابنتها بغطاء وأطعمتها ، وراحت تشارك سكان الشارع في البحث في صمت ...

لا يسمعون إلا نعيق الغراب ، ونعيب البوم ، استخرجوا أجساداً مشوهةً ما بين قدم مبتورةٍ ويد ورأس مجرد اشلاء هل هناك كاتب يستطيع أن يصف هذا ؟! آه وألف آه ، أخشى أن أفقد الإحساس من كثرة ما شاهدت ...

قرر سكان الشارع أن أفضل حل هو دفنهم كما هم فهم شهداء ... وراحت أم محمد تضم تلك الأاشلاء واحداً واحداً وهي تبكي ، وراحت تحدث نفسها .. أتلك قدم ابني؟

وهذه يد ابنتي ، أما تلك لا اعرف؟ ... نعم نعم هذا أبي وراحت تضمهم وتبكي بصوت هو خليط ما بين الأنين وحشرجات الموت ... جُمعت الأشلاء وتم دفنها قبل طلوع النهار ...

لقد أصبحت المقابر متكدسة ... ولم يمر يومان على أم علي حتى تعرض منزلها للقصف وقد كانت ... خارج المنزل هي وطفليها وهى في سعي دائم .. أما للبحث عن زوجها أو بحثاً عن طعام ...

وجلست تفكر أين تذهب وهى لا تملك شيئاً لا طعام ولا مكان يأويهم ... راحت تنبش بين الركام حتى وجدت فراغاً للدخول وتسللت إلى ما تبقى من الدار هناك فراغ يتسع لها ولأبنائها وقررت أن تنام بين الركام فمازال بداخلها أمل أن يعود زوجها لذلك لا تستطيع ان تغيب عن المنطقة ..

وفي اليوم التالي وبومضة من حسن الحظ وبريقا من الأمل حضر أحد اصدقاء زوجها وأخبرها أن زوجها أصيب

وأنه في مكان آمن وطلب أن تذهب هي والأولاد معه ... حمدت الله أنها لم تترك المكان ...

وصلوا إلى بيت شبه مهدم ، ومن تحته كان هناك شبه خندق، او مخبأ مجهز بالضروريات ، مشفى صغير ، وزوجها نائماً على مرتبه على الأرض ... استمع إلى صوت أبنائه فتح عينه ...احتضنهم ونظر إلى زوجته .. فقالت له ما بك يا أبا علي؟

أجاب: الحمد لله ... جلس والأولاد بجانبه ونظر إلى الغطاء مكان ساقه ...فقد بترت ساقه ، قال لها لا تفزعي فما زلت أملك ساق أخرى إنها الحرب القذرة، القناصون يصطادون البشر كما يصطادون الضواري بلا رحمة... أعتقد أنهم مستأجرون يتدربون علينا ويختارون أهدافاً تجعل منا عجزة ، لا أعلم لماذا لا يقتلوننا...

ماذا سنصنع أشعر بالضياع بعد أن هدم المنزل ومات أغلب الجيران .

وأخبرها أصدقاء زوجها أنه سيتم تهريبهم إلى خارج سوريا إلى الحدود التركية ..

ونظرت إلى زوجها أنرحل جميعا ؟، فقال لها نعم ستكونين أنت والأولاد في أمان ...

قالت بصوت هامس . لا يا أبا علي فهناك أيضا لن نشعر بالأمان بدونك وقد سمعت الكثير من القصص المرعبة.. أرجوك أخرجوا من هنا ..

لا وألف لا.. لقد أقسمت إما أن نموت بين جنبات مدينتنا فالهروب عار وخيانة لكل من مات من أهلينا وأصدقائنا.. أو نحيا فيها ... فلو خرج الجميع فإننا نسلمها لأشباح الموت وزبانية الجحيم يقتسمونها غنيمه سهلة ليعيثوا فيها فسادا وفى النهاية ، لكل أجل كتاب... وكان ابنهم ذا الأعوام السبعة وابنتهم ذات الأعوام الخمسة متشبثين بوالدهم وقد اتخذ الجميع قراراً لا رجعة فيه ... إما الشهادة أو النصر.

فإن الأوطان بلا بشر حجارة وأرض صحراء مقفرة ....